الفصل التاسع

بين أمل وألم

(لا أستطيع تصديق ما حدث، كيف يمكن لها أن تجرؤ على ذلك؟)

تمتم لنفسه بذلك ساخطاً حين كان بصحبة رفاقه بمقصف الكلية بالقسم الخاص بالطلاب، وقد اجتمعوا حول طاولة واتخذ كلٌ منهم مقعده؛ جلس ناصر عن يمينه، وصبري عن يساره، ومحمود أمامه، ووليد بين ناصر ومحمود، ثم طلبوا بعض العصائر والشطائر المختلفة وبدأوا يأكلون، إلا هو، ارتشف رشفة صغيرة من عصير المانجو الذي طلبه ثم شرد بفكره وهو يضع يده أسفل ذقنه الحليق، وظل ساهماً واجماً يفكر فيما حدث؛

عقله يسترجع الأحداث، وعيناه البنيتان شاردتان تنظران للبعيد كأنما الموقف هناك وأحداثه لا تزال تجري أمامه، وحرارة الصفعة أكدت له أن ما تم لم يكن وهماً أو تخيلاً.

عاد يقول في نفسه وهو يتذكر ملامح وجهها:

-تلك المزدوجة... رغم تشوه وجهها كانت عيناها ذات قوة غريبة، كل فتاة قد ترتبك إن وقعت في موقف محرج أو تحدث أحدٌ بحديث يمس جمالها أو يفسده، مع أنها لا تملك أي شيء منه، لم تفكر أبداً في نفسها... لكن... لحظة...

هدأ قليلاً وهو يطبع قسمات النصف الأيمن من وجهها على نصفه الأيسر، معطياً بخياله كل تفاصيله؛ البشرة السمراء المزهرة في ربيع الشباب، وعينها الواسعة المتقدة حدة وفطنة، تلك الصدمة التي تلقاها لحظة الصفعة، والجمود الذي أصابه سمحا لعينيه بأن يتنقلا بين

التضاريس المتناقضة في وجه واحد، الجمال والذمامة، بالإضافة إلى جسارة لم يشهد لها مثيلاً، عاد يتمتم:

-لو كان ذلك النصف المشوه مثل السليم لربما...

قطع حبل أفكاره حين سمع ناصر يقول في استنكار بعد أن أنهى شطيرته:

-لا أدري لِمَ لم يرد طارق على تلك المتعجرفة وظل صامتاً كالأحمق يحدق بها؟ أشعر بأنه خاف منها.

تقافز الغضب على وجهه، فنهض من مكانه مسرعاً مبعداً كرسيه في عنف، وجذبه من تلابيبه بقوة، وهو يقول في سخط:

-أنا أخاف من فتاة!! كيف تجرؤ على قول هذا يا ناصر؟

لفت بصراخه وتصرفه كل من حوله من الطلاب، لم يجبه ناصر بل أمسك قبضته واتجه بأنظاره صوب من حوله ليلفت انتباهه ويدفعه لتركه؛ لكنه لم يفعل، بل شد قبضته حتى ظن بأن سترته ستتمزق، فرد عليه في ارتباك:

-هذا ... هذا ما بدا أمام الجميع يا طارق ولا أكذب عليك.

عقد محمود حاجبيه، وقال في حدة دون أن ينظر إليهما وهو يحرك العصير بيده اليمنى بواسطة المصاصة:

-لقد جعلت نفسك موضع سخرية أمام الجميع بدلاً من أن توقع بها، أنت سبب ذلك فلا تلم أحداً.

التفت إليه وهو يقول مزمجراً:

-ماذا تقول؟!

جن جنونه، وأسرع يدفع بناصر ويلقي به إلى كرسيه بقوة لدرجة أنه كاد يطيح بهما معاً، ثم اتجه إلى محمود والشرر يتطاير من عينيه، فنهض صبري وأمسك به من كتفيه من الأمام محاولاً منعه، بينما جذبه وليد بذراعه من الخلف، وهو يقول مهدئاً:

-اهدأ يا طارق، وجد طريقة تستعيد بها هيبتك.

حاول مقاومتهما، فعانداه وقاوماه، بينما ظلت نظرات اللا مبالاة تستطع من عيني محمود وهو يتناول عصيره بهدوء، ثم قال حين رأى مقاومة رفيقيه له:

-استمع لصوت العقل قبل أن تغضب، فكر، لن يفيدك هذا بعد أن وقعت الفأس بالرأس.

زادت الكلمات من سخطه إلا أنه حز على أسنانه، وكور قبضته اليمنى للحظات ساعياً لتهدئة غضبه، ثم أطلق زفرة قوية ودفعهما ليبتعد عن جمعتهم خارجاً من المقصف وهو يقول لنفسه وقد التمع وهج الشر في عينيه:

-سأجعلها تدفع الثمن، ستندم على هذه الإهانة طوال حياتها.

لن يستطيع شيء أن يثني العزيمة في طريق الكفاح إلا أعماق النفس. إن تعثرت وانهزمت فالهزيمة لا بد واقعة، وإن حمل صاحبها ألوية النضال ومضى فلا بد أن يكون منتصراً. الحياة رغم ما تبدو عليها من بساطة أحياناً إلا أنها ميدانٌ لمعارك شتى محتدمة، وكلٌ يقاتل على طريقته الخاصة.

ورغم كل معاناتها ووضعهم المادي البسيط، إلا أنها خططت لدربها جيداً وعزمت على ألا تحيد عنه مهما كانت الظروف.

في المساء، تتركها مها لتجلس في غرفة الضيوف حتى تختلي بنفسها ومذكراتها وتنتبه لدروسها بعد أن تدعو لها بالتوفيق، تسر بدعاء والدتها، ثم تفترش الأرض وتشرع في عملها فترفع صوتها حيناً وتكتب حيناً آخر لتثبت المعلومات، حتى إذا ما مرت ساعة تنتبه بأن المحاضرات قد تبعثرت أمامها بعشوائية، تبتسم وتجمعها، ثم تستأنف مذاكرتها.

وفي تلك الأثناء وبينما هي كذلك، سمعت طرقاً على الباب، فقالت:

-أمي، يمكنك الدخول، الغرفة غرفتك.

لكن من فتح الباب هو أخوها شادي.

شاب في أواخر العشرينيات، أقبل عليها بقامته الطويلة وهو يرتدي بدلة زرقاء اللون خاصة بعمال الورش اتسخت ببقع الزيت الأسود وبقايا مخلفات السيارات، كان هذا ناتج عن طبيعة عمله في صيانتها، ورسم على وجهه الأسمر -الذي لم يسلم من البقع السوداء هو الآخر- ابتسامة عريضة حتى بدت أسنانه البيضاء تلمع كلآلئ وسط سمرة بشرته وسواد

شعر رأسه وشاربه القصيرين ولحيته الخفيفة التي امتدت على طول ذقنه، ملامحه الهادئة تعكس اتزان فكره.

ابتسمت له وقالت:

-أهلاً شادي، ظننتك أمي.

دخل الغرفة وهو يقول :

-أخرتُ أمي قليلاً لتخيط سترتي، كيف هي دراستك؟

-على خير ما يرام والحمد لله.

ابتسم لها، وقال في حزم:

-ابذلي جهدك ولا تقلقي على شيء، وسنصبر حتى تتحسن الظروف معنا ونتمكن من الانتقال لسكنٍ أفضل وربما نستطيع العودة إلى مدينتنا، من يدري.

-الحمد لله كثيرا على نعمة الحياة والعافية، بالتأكيد سنصبر يا أخي ولن يدوم حالنا هكذا، وسأبذل جهدي في دراستي، لن يضيع كدك وتعبك لأجلنا بإذن الله.

اتسعت ابتسامته من كلماتها ودنا أكثر منها وجلس لجوارها وهو يتأمل أوراق محاضراتها وبفضوله للعلم أخذ يقرأ في أحدها، فسألته:

-كيف تسير أمورك في الورشة؟ لقد تأخرت في العودة اليوم.

نظر إليها وهو يقول:

-على خير ما يرام بفضل الله، مالك الورشة مسرور من عملي وقريباً سيجعلني مشرفاً على عماله، لا تنسي بأن شادي خريج هندسة ميكانيكية بامتياز.

قالت في نبرة خالطها الأسى:

-وكيف أنسى هذا؟ أنت متميز بشهادة كل المعلمين الذين كانوا يتصلون بأبي رحمه الله، وأيضاً بشهادتك ودرجاتك العالية، ولولا الحرب لكنت الآن معيداً بجامعة عدن العريقة، للأسف، حتى الجامعة لم تسلم من أيدي أولئك المتمردين.

ازداد الحزن على وجهها وهي تقول ذلك، بينما زفر في ضيق وهو يقول في سخط:

-لعن الله الحرب ومن يوقظها.

ثم سألته محاولة تغيير محور الحديث:

-وهل ستذهب الآن إلى السوق المركزي؟

هز رأسه.

-نعم، سيبدأ عملي بعد ساعة.

قالت في لهجة إشفاق:

-وفقك الله يا أخي وأعانك، دوام بالورشة في الصباح، ثم بالسوق حتى الثانية صباحاً، هذا مرهق جداً.

مسح على رأسها في حنو، وهو يقول مبتسماً:

-إن كان لأجل أهلي فكل شيء يهون، اجتهدي فقط ولا تقلقي عليَّ، ونجاحك هو أثمن شيء يمكن أن تقدميه لي، تمنياتي لك بالتوفيق يا أختي.

سرت بتشجيعه فابتسمت وهي تقول في ثقة:

-سأقدم لك نجاحي إن شاء الله، أعدك بذلك.

أفرحته كلماتها؛ لكن الفرحة انكسرت في أعماقه حين اقترب من وجهها كثيراً، وعاينت عيناه ندبة الحرق الكبيرة المنتشرة على يسراه، عاين عن قرب تضاريس الندبة العميقة، وثناياتها المنكمشة التي نتجت عن حرق بالغ العمق لم ترحمها النيران بل زحفت بقوة والتهمت جلدها بقسوة بكل كادت تصل إلى نخاع العظام الرقيقة، لولا أنه تمكن من إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ثم شاركت الندبة الحرق لاحقاً، فكادت تغلق عينها نهائيا، ولولا أنها أشفقت عليها وأتاحت للجفنين الانفراج والانغلاق قليلا، تمثلت ذكريات ما حدث أمامه وكادت دموعه تهرب من عينيه شفقة على محل بها، ولعجزه عن تصحيح هذا الوضع، فأسرع يهرب من أمام عينيها ليصعد للأعلى ويقبل جبينها، إلا أن عاصفة الألم خذلته، فانهمرت دموعه على خديه دون أن تنتبه له إلا بعد أن أحست بها تندي خديها فجأة، رفعت رأسها لترى دموعه التي كانت تتساقط على وجهها، وترى عينيه الحزينتين، سألته في قلق:

-ما بك يا أخي؟ لِم تبكي؟

لم يستطع أن يكبح جماح حزنه، فقال بصوت متحشرج وهو يتحسس خدها المحترق بيمناه :

-لأنني... لم أستطع أن آخذك إلى بلد آخر لتجري عملية لـ...

قاطعته وهي تمسك بيده في لطف:

-أنا بخير، ولست حزينة لذلك، يكفيني أنك سندنا في هذه الحياة بعد والدي رحمه الله، عندما أنظر لملامح وجهك الهادئة أطمئن، أشعر بأن الله عوضني بسند كبير، حفظك الله يا أخي، أرجوك، امسح دموعك فلا أحتمل رؤيتك حزينا هكذا.

امتثل لأمرها ومسح دموعه، ثم قالت:

-واثقة أن الغد سيكون أجمل بإذن الله، فابتسم دائماً.

-سأفعل.

مسح الحزن عن وجهه وابتسم لأجلها، ثم غادر الغرفة بعد أن دعا الشقيقان لكل منهما بالخير، وكلهما أمل بأن ما فقدوه و حزنوا لأجله لابد أن يعوض، مهما طال الزمن.

مع ضيق الحياة تلتجيء بعض الأرواح لفسحة الكتاب وتغوص في عالمه بعيداً عن آلام الواقع، الكتاب هو أنيس القلب وعلى إثر تعليماته تتكشف معالم المستقبل، وتتجلى دروبه، ويزيد الشغف عندما يختار الإنسان فسحته التي يحبها.

تخصص (الهندسة الكيميائية) لم تختاره ضياء عبثاً؛ بل رأت فيه مستقبلاً سيكون جميلاً لها، تخصص طلابه معدودون بالجمهورية ولا شك بأنها بعد أن تتخرج منه بتفوق وامتياز سيتم قبولها في جامعة حضرموت أو في أي شركة أو مصنع للمواد الكيميائية ومستحضراتها، مستقبل باهر ينتظرها عبره، وكل مواده العلمية تثير فضولها أهمها مادة الكيمياء بكل

تفاصيلها، تغوص في غمار هذا الاختصاص باحثة بكل جدٍ عما فاتها منه ومستقبلة بكل حماس لما هو قادم.

خلال فترة الاستراحة، وعلى عادتها برفقة سحر تجلسان في القاعة بالمدرج الثاني وعن يمين القاعة، تتناقشان في بعض المحاضرات الفائتة عليها، وقد خلا المكان إلا منهما، ثم دخل طارق ورفاقه ومروا بالقرب منهما حين سمعتاه يقول لناصر في زهو:

-هل سبق لك أن مررت قرب العمارات التي يملكها والدي قرب مستشفى المكلا؟

-تقصد الموجودة بحي السلام؟

-نعم، منها ما بناها والدي ومنها ما اشتراها من ورثة الأجداد، بداية كان يأوي في بعضٍ منها المحتاجين بإيجار رمزي ويساعدهم لإيجاد فرص عمل ببعض المحلات أو أي مكان مناسب لهم، لكن ما أن تتحسن أمورهم حتى يتهربوا من دفع ما عليهم والابتعاد عن المدينة دون كلمة شكر أو عرفان.

رد محمود في ضيق:

-هذا جحود.

حرك طارق رأسه وهو ينظر لضياء من طرف عين، ويقول بنفس الضيق رافعاً صوته:

-أما اليوم، فقد حولها أبي للنازحين من عدن بعد أن شردتهم الحرب وهجوم المتمردين عليها، وبدل الشكر يتذمرون من المسكن، معتقدين بأنه سيمنحهم فندق سبعة نجوم.

قال صبري في ضيق مماثل:

-لا أستغرب ذلك يا صديقي، فالمتشردون عادة ما يكونون هكذا، يطلبون مزيداً من العطاء، مزيداً من الصدقات لتتكدس جيوبهم يا أخي، والدك رجل طيب وكريم؛ لكن يجب عليه أن يكون حذراً من هؤلاء، أخشى حدوث شيء أسوأ من مجرد طلبات ما داموا على هذا النحو.

امتقع وجه ضياء مع حديثهم، و بدا عليها الألم، في حين بدا الضيق على وجه سحر، إلى أن قال طارق ممعناً في إيذائها:

-نجوا من الموت ليذيقونا ويلات معاناتهم؟! كم مرة طلبتُ منه أن يبيع العمارات ويرتاح من أذية المتسولين والغرباء، والآن... المتشردين والطفيلين على مدينتنا، أو يؤجرها لأناس تستحق ذلك، دائماً يحب ما يسبب الصداع، سامحه الله وهداه.

ازداد الألم بقلبها من كلماته، فأعرضت بوجهها عنه وعن رفاقه محاولة إخفاء حزنها، بينما صاحت سحر بهم وهي تقول في غضب:

-أنتم، هلَّا انصرفتم من هنا؟

التفت إليها وقال في لا مبالاة:

-ولِمْ؟ القاعة ليست حكراً لكما.

ازداد سخطها وهي ترد عليه:

-لا أدري أي قلب تحمل في صدرك؟ أولئك الذين تنعتهم بالمتشردين لم يختاروا مغادرة مساكنهم، إنها الحرب والتي أسأل الله أن يجنب مدينتنا شرورها، يكفينا ما نحن به، نحن في

بلد واحد ويجب أن نساعد أهلنا وقت شدتهم، ليس من أخلاقنا أبداً ولا أخلاق أهل حضرموت ألا نساعد أحداً، هل تعي هذا؟

رد عليها في تهكم:

-لقد قلتها، يكفينا ما نحن فيه، إذن لا تنسي بأن مدينتنا أيضاً تعاني من ويلات الحرب وسطوة أولئك العصبة، ومنهم الآن، تحملناهم رغما معاناتنا ولم نقل شيئا، حتى تحررت أرضهم ورحل من رحل وبقي من بقي يترفه بالعيش على حسابنا ويقاسمنا أرضنا ولقمة عيشنا، كل هذا تجاوزناه، ثم إني لم أقل ألا نساعدهم؛ بل أن أبي ساعدهم ووقف مع الكثيرين منهم، والأولى بهم الآن أن يرحلوا ويشعروا ببعض معاناتنا؛ لكنهم لا يفهمون ذلك، والمشكلة الأكبر من هذا هي تكبرهم وجحودهم لما قدمه أبي وغيره لهم، ويتحدثون عنا بالسوء بدل من الشكر والعرفان والامتنان، إنهم أناس لا يعتبرون، لقد رأوا الموت ألواناً ومع ذلك...

-اصمت.

صرخت ضياء في وجهه مقاطعة إياه، وهي تقول في ألم:

-من أنت لتدرك ما رأينا وواجهنا أيها المغرور؟ لو كنت تدرك ذلك لما نعتّ من ترك بيته قسراً بـ(المتشرد)؛ بل هبيت لمساعدته دون كلمة شكر، ربما تقابل من يتذمر من النقص، فالناس ليسوا متشابهين؛ لكن الأهم من هذا كله هو ألا تفقد عزيزاً أو عضواً من جسدك،

يظهر لي بأن والدك أكثر إحساساً منك بمعاناة أبناء بلده، أما أنت، فلا تريدهم إلا أن يشكروا ويمتنوا.

ابتسم وقد أعجبه ما بدا من ألم على وجهها، رد عليها في تكبر واضح:

-هه، هذا أقل ما يمكن تقديمه، ألم يقبل أبي بإيوائكم دون مقابل لمدة شهر ريثما تجدون الأعمال المناسبة أو تعودون لمدينتكم؟! وقدم لكم المساعدة مع بعض رفاقه من التجار في ... ازداد الوجع بقلبها ووجدت بأن الاستمرار في الحديث لن يثمر بشيء وهذا الوحش يتفنن في تسليط لسانه ممعناً في إيذائها، خلقت ألف شمعة للأمل، أوقدتها لتضيء دربها وتمضي بنورها نحو الحياة محاولة تناسي كل ما كان، فإذا به يحاول إطفاءها وسحقها بقسوة، وإضرام نيران الألم والحسرة مكانها، فتدمر كل قلاع الصمود بأعماقها.

حملت حقيبتها ونهضت لتخرج من القاعة دون قول كلمة، غير منتظرة لتتمة حديثه وهي تقاوم ما بها، فقطع عبارته ثم أردف ساخراً:

-مالأمر آنسة ضياء؟ ألم يعجبكِ ما قلت؟

لم تكترث له وغادرت المكان، فأسرعت سحر تلحق بها، بينما عاد ليقول:

-آنسة سحر، قولي لها ألا تنزعج كثيراً، فهذه الحقيقة ويجب أن تتقبلها.

عقدت حاجبيها في غضب، ومضت في طريقها، وجدتها قد دخلت مصلى الطالبات بمسجد الجامعة الذي كان خالياً، وانكمشت في زاوية منها دون أن تستطيع حبس دموعها طويلاً، فانهمرت على خديها في ألم وحرقة، رفعت سحر نقابها وجلست إلى جوارها وهي تربت على كتفها، وتقول مواسية إياها:

-أرجوك عزيزتي لا تحزني هكذا، إنه شخص نزق لا يجيد كلاماً، لا هم له إلا نفسه منذ أول يوم عرفته هنا.

أجهشت ببكاء حزين وهي تدفن وجهها بين يديها، احتضنتها رفيقتها محاولة تهدئتها، بينما قالت بنبرة خنقتها العبرات:

-اللهم لا راد لقضائك... اللهم لا راد لقضائك..

كادت سحر تبكي لبكائها وحزنها، قاومت عبراتها لأجل أن تساندها، شاعرة بالألم الذي يعتصر قلباً ذاق من ويلات الحرب ما ذاق، ورأت بعينيها مأساة مدينة بأسرها؛ بل أنها خُلِّدت إلى الأبد في جسدها.

تمنت ضياء بدخولها للكلية أن تستطيع نسيانها والمضي قدماً في دربها؛ لكن الدرب يصبح وعراً أحياناً ومطباته لا تلبث أن تظهر فجأة معكرة صفو الحياة.

******